دلالةُ اللَّفظِ بين الوضع والسِّياق

(شعر أبي فراس الحمْداني نموذجًا)

إعداد: الباحث بكر عبد العزيز عبُّود

إشراف: أ. د. سمير أحمد معلوف – المشرف المشارك: أ. م. د. وصال الحميد –

جامعة حمص – كليَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة – قسم اللُّغة العربيَّة

ملخَّص البحث:

لا شكَّ أنَّ الكلام بألفاظه يحمل نوعين من الدلالة هما: الدلالة الحقيقيَّة (الوضعيَّة) والدلالة المجازيَّة (السياقيَّة)، أو كما عبَّر عنهما عبد القاهر الجرجاني بـ (المعنى ومعنى المعنى)، فالمعنى: هو دلالة اللَّفظ الوضعيَّة المعجميَّة، وهي الدلالة التي يحملها اللَّفظ المفرد قبل أنْ يدخُل في علاقاتٍ نظميَّةٍ سياقيَّةٍ مع الألفاظ المُجاورة له لتشكِّل بمجموعِها صورةً كلاميَّةً ذات دلالة معيَّنة هي (معنى المعنى).

وقد عمد هذا البحث إلى دراسة دلالة اللَّفظ بين الوضع والسِّياق (شِعْر أبي فراس الحمْداني نموذجًا).

الكلمات المفتاحيَّة: الدلالة، المركز، الهامش، اللَّفظ، المعنى، الوضع، السِّياق، النَّظم.

Linguistic Meaning: Between Convention and Context

(The Poetry of Abu Firas al-Hamdani as a Case Study)

By Bakr Abdel Aziz Abboud

Supervised by Professor Samir Ahmed Maalouf

Co – Supervisor: Prof. Dr. Wisal Al-Hamid

Department of Arabic Literature, Faculty of Arts, Homs University

Abstract:

Undoubtedly, spoken language—through its words—conveys two types of meaning: literal (lexical/conventional) meaning and figurative (contextual) meaning—or what Abd al-Qahir al-Jurjani termed "meaning" and "the meaning of meaning." "Meaning" refers to the word's conventional, lexical signification—the sense a single word holds before entering into the syntactic and contextual relationships with neighboring words that collectively form a verbal image with a specific significance: "the meaning of meaning."

This research aims to examine the semantics of words as they shift between conventional definition and contextual usage, taking the poetry of Abu Firas al-Hamdani as a case study.

Keywords:

Signification, center, margin, word, meaning, convention, context, syntactic arrangement.

المقدمة:

تعدُّ الكلمةُ الأصـــلَ في بناءِ اللُّغةِ، والمعوَّلَ عليها في الحُكمِ على النَّصِّ اللُّغويِّ بالفصـــاحةِ والبلاغةِ،[1] فالإنسانُ يَكْتَسِبُ " ألفاظ اللُّغة ودلالاتها في تجارب كثيرة من تجارب الحياة، معها تتشكَّل الدلالات وتتلوَّن وتُظلَّل بظلال متباينة، ثمَّ تســـتقر على حال عندها يتبنَّى المرءُ لكلِّ لفظٍ دلالة معيَّنة هي جُزْءٌ مِنْ عَقْلِهِ ومِنْ نفسه. فتصبح تلك الألفاظ الصوتيَّة كالكائن الحي ربَّاه أهله وتعبوا في تربيته حتَّى اســتقام على عُوْدِهِ، وصـــار محلَّ فخارِهم وإعجابِهِم. وكذلك الناس مع الألفاظ لا يكادون يرون فيها مجرَّد رموز صوتيَّة تعبِّر عن الأشياء والكائنات، بل هي في رأيهم نفس الأشياء والكائنات."[2]

ولهذا نجد اهتمام العلماء بالكلمة على مرِّ العصـــور، فهي نتاج تلفُّظٍ لعددٍ من الحروف المســموعة في تناســقٍ معيَّنٍ لتشــكِّلَ بمجموعها ما يُعرف بالكلمة،[3] وهي كما عرَّفها ابن الحاجب (- 646هـ): " لفظٌ وُضِعَ لمعنىً مفرد "[4]، وقيل: إنَّ لفظَ (الكَلِمَة) مُشْتَقٌّ من (الكَلْم) بمعنى الجُرْح، وعُلِّلَ الســـببُ في ذلك في أنَّ الكلمةَ والكَلْمُ كلاهما يؤثِّران في النَّفْسِ،[5]والكلمة تشـــملُ الاســـمَ والفِعْلَ

[1] يختلف مصطلح الفصاحة عن مصطلح البلاغة، وقد تنبَّه إلى ذلك علماؤنا القدامى ومنهم الخفاجي (- 466هـــ) حين قال: " والفرق بين الفصاحة والبلاغة أنَّ الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلَّا وصفًا للألفاظ مع المعاني، لا يُقال في كلمةٍ واحدةٍ لا تدلُّ على معنى يفضـلُ عن مثلها بليغة، وإنْ قِيْلَ فيها فصـيحة وكلُّ كلامٍ بليغٍ فصـيحٌ، وليس كلُّ فصيحٍ بليغًا، كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه ": سرُّ الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ط1، 1982م، ص: 59

[2] دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصريَّة، مصر، ط3، 1976م، ص: 11

[3] ينظر: اللفظ والمعنى في ضوء الدلالة، نور الهدى لوشن، مجلَّة التبيين، الجزائر، العدد: 22، 2004م، ص: 45

[4] شرح الرضي على الكافية، تح: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي – ليبيا، ط2، 1996م، ج1، ص: 19

[5] ينظر: المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

والحَرْفَ،[1]وقد تُطلق " مجازًا على القصـــيدة، والجُمل، يُقال: كلمة شـــاعر، قال الله تعالى: (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ) [سورة الأعراف: 137][2] "[3].

ونحنُ في هذا البحث آثرنا استخدامَ مُصْطلح (اللَّفظ) وجعلناه رديفًا لمصطلح (الكَلِمَة) لأنَّ هدَفنا هو إظهارُ الصِّلةِ بين ما ننطِقُ به من أصوات وما تدلُّ عليه من دلالات تختلفُ باختلاف معايير الفصاحةِ التي وَضَـــعَها عُلَماؤنا القُدامى للَّفظ، وجَعَلوها مِنْوالًا يُحتذى للتعرُّف على أَثَرِ اللَّفظِ فيما يوحيه للأذهان من صورٍ ذهنيَّةٍ قد تختلفُ قوَّةً وضَعْفًا، وتتباينُ في رِفْعَتها أو خسَّتها، وتتأرجحُ بين الوُضوح والإبهام تبعًا لِما يُجاورُها من ألفاظٍ داخل سياق النَّظمِ.[4]

ومن هنا تكمن أهميَّة دراسة دلالة اللَّفظ الوضعيَّة والسِّياقيَّة في شعر أبي فراس الحمْداني، لكي نتبيَّن أثر السِّياق والعُرف الاجتماعي وعلاقات المجاورة بين الألفاظ في صياغة الصُّورة الكلاميَّة وتوجيه دلالتها في شعره.

أهميَّة البحث:

يُعدُّ هذا البحث من الأبحاث المهمَّة لأنَّه يدرس دلالة اللَّفظ واختلافها بين الوضع والسياق الذي توضع فيه، فيمنح المتلقِّي قدرةً على فهمٍ أعمق للنصِّ اللُّغويِّ، وخصَّصنا نماذج مختارة من شِعر أبي فراس الحمْداني لتكون موضـــع اهتمامنا في الدرس والتحليل، لا ســـيَّما أنَّه امتاز من غيره من الشُّـــعراء القُدامى بأسلوبه الخاص في التَّعبير عن المعنى في صوره الكلاميَّة

[1] ينظر: شـرح الرضـي على الكافية، تح: يوسـف حسـن عمر، ج1، ص: 27، وموسـوعة كشـاف اصـطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي، تح: علي دحروج وعبد الله الخالدي وجورج زيناتي، مكتبة لبنان ناشـــرون، بيروت – لبنان، ط1، 1996م، ج2، ص: 1371

[2] الآية كاملة: (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْـــتَضْـــعَفُونَ مَشَـــارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْـــنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْـــرَائِيلَ بِمَا صَـــبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْـــنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُـــونَ) [ســـورة الأعراف: 137]

[3] شرح الرضي على الكافية، تح: يوسف حسن عمر، ج1، ص: 20

[4] ينظر: دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ص: 38 - 39

- **مشكلة البحث:**

لا بدَّ لكلِّ بحثٍ أكاديميٍّ من أنْ يواجه بعض المشكلات التي قد تعتري الباحث عند الخوض في غمار البحث، ومن تلك المشكلات التي واجهتني مشكلة استنباط الدلالة السياقيَّة (الهامشيَّة) للَّفظ، فمعرفتها تحتاج للعودة إلى المعاجم من أجل معرفة الدلالات الوضـــعيَّة التي يشـــملها اللَّفظ، ومن ثَمَّ معرفة دلالات الألفاظ المُجاورة في سياق النَّظم لكي نصِلَ إلى الدلالة السِّياقيَّة لذلك اللَّفظ.

- **هدف البحث:**

يهدف البحث إلى إيضاح دلالة اللَّفظ الوضعيَّة والسِّياقيَّة من خلال نَماذج مُختارة من شِعْر أبي فِراس الحَمْداني.

- **منهجيَّة البحث:**

سنتَّبع في بحثنا هذا المنهج الوصفي التحليلي، لأنَّ هذا المنهج يقوم بوصف الظَّاهرة اللُّغويَّة وتحليلها، وذلك لأجلِ معرفة اختلاف دلالة اللَّفظ باختلاف السِّياق في شِعْر أبي فراس الحَمْداني.

- **هيكليَّة البحث:**

تتألَّف الدراســـة من مبحثٍ واحدٍ، تمَّ الحديث فيه عن اختلاف دلالة اللَّفظ بين الحالة التي يكون فيها مفردًا، وما يطرأ عليه من دلالات هامشـيَّة أثناء دخوله في سـياق النَّظم، ومجاورته للألفاظ الأُخرى في شعر أبي فراس الحمْداني.

أولًا: إشكاليَّة المُصطلح (اللَّفظ):

يبدو أنَّ مصطلح (اللَّفظ) رديفٌ لمصطلح (الرمي)، وهذا ما نستنبطه من كلام علماءِ اللُّغة، جاء في مُعجم العَيْن: " اللَّفْظُ: أنْ تَرْمِيَ بشـــيءٍ كانَ في فيكَ، والفعلُ لَفَظَ يَلْفِظُ لَفْظًا. والأرض تَلْفِظُ

الميِّتَ، أي ترمي به، والبَحْرُ يَلْفِظُ الشَّـيْءَ يرمي به إلى الســاحِلِ، والدُّنيا لافِظةٌ تَرمي بمَن فيها إلى الآخِرة."[1]

كما ورد (اللَّفظ) بمعنى الرمي في شـعر أبي فراس الحمْداني، وذلك في مطلع قصـيدةٍ قال فيها:[2][من المتقارب]

وَمَــا أَنْــسَ لَا أَنْــسَ يَــوْمَ الْــمَــغَــارِ مُــحَــجَّــبَــةً لَــفَــظَــتْــهــا الْــحُــجُــبْ

ومناسـبة القصـيدة أنَّ سـيف الدولة خَرَجَ " في طَلَبِ بَنِي ((كِلَابٍ)) ومَنِ انْضَـافَ إِلَيْهَا. فَلَحِقَ حِلَّةَ ((بَنِي نُمَيْرٍ))، ورئيسُـها ((مُمَاغِثٌ))؛ فَاحْتَوَى عَلَيْهَا؛ فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ ابْنةُ ((مُمَاغِثٍ))؛ مُسْـفِرَةً، حَافِيَةً، كالشَّـمْسِ الطَّالِعَةِ وانكَبَّتْ عَلَى مَسَـابِرِ الأَمِيرِ سَـيْفِ الدَّوْلَةِ فَصَـفَحَ لَهَا عَنِ الْحِلَّةِ وَأَمَرَ برَدِّ مَا أَخَذَ)) فكَتَبَ إِلَيْهِ أَبُو فِرَاسٍ يُدَاعِبُهُ "[3] بقصيدةٍ مطلعها البيت السابق.

في حين ورد اللَّفظ في معجم لســان العرب بمعنى (الكَلَام): " لَفَظ بالشــيء يَلْفِظُ لَفْظًا: تكلَّم. وفي التنزيل العزيز: (مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) [سـورة ق: 18] ولَفَظْتُ بالكلام وتَلَفَّظْتُ به أَي تكلَّمت به واللَّفْظ: واحد الأَلْفاظ، وهو في الأَصل مصدر."[4]

نلاحظ أنَّ المعاجمَ العربيَّة تكادُ تُجمِعُ على أنَّ (الألفاظَ) تُرادف (الكلماتِ) في الاســتعمالِ الشــائعِ المألوفِ، فلا فرقَ بين أنْ يُقال أحصينا ألفاظ اللُّغة، أو كلمات اللُّغة.

[1] كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ط1، 2003م، ج4، مادة (لفظ)، ص: 93

[2] ديوان أبي فراس الحمداني، تح: ســامي الدَّهَّان، المعهد الفرنســي بدمشــق للدراســات العربيَّة، بيروت – لبنان، د.ط، 1944م، ج2، ص: 17

[3] المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

[4] لسان العرب، ابن منظور، تح: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث الإسلامي، مؤسَّسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، ط3، 1999م، ج12، مادة (لَفَظَ)، ص: 304

ويرى الناقد (إبراهيم أنيس) أنَّ عُلماء اللُّغة القُدامى استشعروا أنَّ اللَّفظ عمليَّةُ نُطقٍ وصدورٍ للصَّوت، وما يستتبِعُهُ مِنْ حركات اللِّسان والشفتين، فإذا رُبِطت هذه الأصوات المنطوق بها بدلالةٍ ما تكوَّنت في رأيِهِم (الكَلِمَةُ)،[1] وبذلك تكون الكلمةُ أخصَّ من اللَّفظ، لأنَّها لفظٌ دلَّ على معنىً.[2]

وإلى جانب ذلك نجد علماءنا القدامى علَّقوا اللَّفظ بالكلام المنطوق، وهذا ما نلمحه من تعريف ابن جنِّي للكلام بقوله: " أمَّا الكلام: فكلُّ لفظٍ مستقلٍّ بنفسه، مفيدٍ لمعناه. وهو الَّذي يسمِّيه النحويُّون الجُمَل (...) وأمَّا القول فأصله أنَّه كلُّ لفظٍ مذِل به اللِّسان، تامًّا كان أو ناقصًا."[3]

ويبدو أنَّ عبد القاهر الجرجاني (- 471 أو 474هـ) كان مدركًا الصلة الوثيقة بين الكلمة واللَّفظ، وذلك حين ربط الكلام بالتدوين في قوله: " وأقسام الكلام المدوَّنة "[4]، وهذا يعني أنَّ الكلامَ قد يكونُ منطوقًا وقد يكونُ مدوَّنًا.

وبناءً على ما سبق يُمكننا القول: إنَّ مصطلحَ الكلمةِ أشملُ مِنْ مُصْطلح اللَّفظ، لأنَّ الكلمةَ تُطْلقُ على الاسم والفعل والحرف المنطوق أوالمدوَّن، في حين يختصُّ مصطلحُ اللَّفظ بالكلامِ المنطوقِ فقط، ونحنُ في هذا البحث آثرنا استخدامَ مُصْطلح (اللَّفظ) وجعلناه رديفًا لمصطلح (الكَلِمَة) لأنَّ هدَفَنا هو إظهارُ الصِّلةِ بين ما ننطِقُ به من أصوات وما تدلُّ عليه من دلالات تختلفُ باختلاف معايير الفصاحةِ التي وَضَعَها عُلَماؤنا القُدامى للَّفظ، وجَعَلوها مِنْوالًا يُحتذى للتعرُّف على أَثَرِ اللَّفظِ فيما يوحيه

[1] هذا التفريق بين اللَّفظ والكلمة الذي تبنَّاه الناقد إبراهيم أنيس غير مقنع، لأنَّ علماءنا القدامى لم يفرِّقوا بين اللَّفظ والكلمة من الناحية الدلاليَّة، فكلُّ ما مذل به اللِّسان سواء دلَّ على معنى أم لم يدل يمكن أن يطلق عليه اسم (لفظ) وهذا ما نستنبطه من قول ابن جنِّي في كتابه (الخصائص) حين عرَّف الكلام وفرَّق بينه وبين القول بقوله: " أمَّا الكلام فكلُّ لفظٍ مستقلٌ بنفسه، مفيدٍ لمعناه. وهو الذي يسمِّيه النحويُّون الجُمَل (...) وأما القول فأصله أنَّه كلُّ لفظٍ مذل به اللسان، تامًّا كان أو ناقصًا ": الخصائص، ابن جني، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصريَّة، مصر، ط2، د.ت، ج1، ص: 17

[2] ينظر: دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ص: 38

[3] الخصائص، ابن جني، ج1، ص: 17

[4] أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تح: محمود محمَّد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدَّة، د.ط، د.ت، ص: 5

للأذهان من صورٍ ذهنيَّةٍ قد تختلفُ قوَّةً وضَعْفًا، وتتباينُ في رِفْعَتها أو خسَّتها، وتتأرجحُ بين الوُضوح والإبهام تبعًا لِما يُجاورُها من ألفاظٍ داخل سياق النَّظمِ.[1]

ثانيًا: اللَّفظ ودلالته الوضعيَّة والسِّياقيَّة في شعر أبي فراس الحمْداني:

يرى علماؤنا القدامى أنَّ الكلام بألفاظه يحمل نوعين من الدلالة هما: الدلالة الحقيقيَّة (الوضعيَّة) والدلالة المجازيَّة، أو كما عبَّر عنهما عبد القاهر الجرجاني بـــ (المعنى ومعنى المعنى)، فالمعنى: هو دلالة اللَّفظ الوضـــعيَّة المعجميَّة، وهي الدلالة التي يحملها اللَّفظ المفرد قبل أنْ يدخُل في علاقاتٍ نظميَّةٍ سياقيَّةٍ مع الألفاظ المُجاورة له لتشكِّل بمجموعِها صورةً كلاميَّةً ذات دلالة معيَّنة هي (معنى المعنى)، وقد جسَّد الجُرجاني ذلك في قوله: " الكلام على ضَرْبينِ: ضَرْبٌ أنت تصِلُ منه إلى الغرضِ بدلالة اللَّفظ وحده، وذلك إذا قصدتَ أن تُخْبِرَ عن ((زيد)) مَثلًا بالخروجِ على الحقيقة، فقلت: ((خرج زيد))، وبالانطلاق عن ((عمرو)) فقلت: ((عمرو منطلق))، وعلى هذا القياس.= وضـــربٌ آخر أنت لا تصـــلُ منه إلى الغرضِ بدلالة اللفظ وحدَه، ولكن يَدُلُّك اللَّفظ على معناه الذي يَقْتضـــيه موضـــوعُهُ في اللُّغة، ثمَّ تجدُ لذلك المعنى دِلَالةً ثانيةً تصـــلُ بها إلى الغرض. ومَدَارُ هذَا الأمر على ((الكناية)) و ((الاستعارة)) و ((التَّمثيل)) "[2].

فمعنى اللَّفظ في حال إفراده يحمل العديد من الدلالات أحدها مركزيّة والبقيَّة هامشـــيَّة،[3]وما يحدِّد الدلالة المركزيَّة والهامشـــيَّة للَّفظ هو علاقات المجاورة والتناســـب بين معنى اللَّفظ ومعاني الألفاظ المجاورة له ضمن السِّياق، ومن هنا نجد الجرجاني ينفي أنْ تكون للألفاظ المفردة أيَّة مزيَّة قائمة في ذاتها، لذلك نجده يردُّ على مَنْ جَعَلَ الفصـــاحة مرتبطة باللَّفظة المفردة فقط، لأنَّه " لو كان وَصْـــفُهم الكلماتِ المُفْرَدَةَ بالفصاحة منْ أجلِ وَصْفٍ هُوَ لها من حيث هي ألفاظٌ ونطق لسان، لَوَجَب إذا وُجِدت

[1] ينظر: دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ص: 38 - 39

[2] دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح: محمود محمَّد شـــاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدَّة، ط3، 1992م، ص: 262

[3] للتوسع ينظر: المعنى وظلال المعنى (أنظمة الدلالة في العربية)، محمد محمد يونس علي، دار المدار الإسلامي، ط2، 2007م، ص: 177 وما بعدها.

كلمة يُقال: إنّها كلمةُ فَصِيحةُ على صفة في اللَّفظ؛ أنْ لا توجد كلمةُ على تلك الصِّفة، إلَّا وجب لها أنْ تكون فصيحة "[1]، فالجرجاني ينفي أنْ تكون الفصاحةُ سِمَةً للَّفظ المُفرد في حدِّ ذاته وِفقًا لخصائص مَحْسوسة يتَّصف بها،[2] فلو كان الأمر كذلك لكان قولنا: " ((فَقِهْتُ الحديثَ)) بالكسر أفصحَ منه بالفتح، أنْ يكون سبيلُ كلِّ فعلٍ مثله في الزِّنة أنْ يكون الكسرُ فيه أفصحَ من الفتح."[3]

وعلى الرغم من ذلك نجد الجرجاني يلتمس العذر لِمَن رأى أنَّ الفصاحة تكمن في اللَّفظ المفرد في سلامة حروفه ممَّا يثقل على اللِّسان، إلَّا أنَّه أنكر عليهم أنْ تكون الفصاحة مقتصرة على ذلك فقال: " واعلم أنَّا لا نأبَى أنْ تكون مَذاقةُ الحروف وسَلامتها ممَّا يَثْقُل على اللِّسان داخلًا فيما يوجب الفضيلة، وأنْ تكونَ ممَّا يؤكِّد أَمْر الإعجاز، وإنَّما الذي ننكرِه ونُفَيِّلُ رَأيَ مَنْ يذهبُ إليه، أنْ يجعله مُعْجِزًا به وحده، ويجعَلَهُ الأَصْلَ والعُمْدَةَ "[4]، وإنَّما يرجعُ الأمرُ في الحُكْمِ على اللَّفظ بالفصاحةِ إلى مُلاءمة معنى اللَّفظ لِمعاني الألفاظ المُجاورة له في سياق النَّظْمِ، ذلك " أنَّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظٌ مجرَّدةٌ، ولا من حيث هي كَلِمٌ مفردةٌ، وأنَّ الفضيلةَ وخِلَافَها، في ملاءمة معنى اللَّفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك، ممَّا لا تعلُّق له بصريحِ اللَّفظ "[5]، واستدلَّ على ذلك حين رأى أنَّ " الكلمةَ تروقُك وتُؤْنِسك في موضع، ثمَّ تراها بعينها تَثْقُل عليك وتُوحِشك في موضع آخر "[6]، واستشهد على ذلك بلفظة (الأخدع) في بيت الصمَّة القشيري:[7][من الطويل]

تلفَّتُّ نحْوَ الحيِّ حتَّى وَجَدْتُني وَجِعْتُ من الإصغاء لِيتًا وأخْدَعا

[1] دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص: 459

[2] ينظر: قضيَّة اللَّفظ والمعنى في الميزان الجرجاني، عبُّود خليفة، مجلَّة حوليات كلية الآداب واللغات لجامعة طاهري محمد بشار، الجزائر، العدد: 15، ص: 156

[3] دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص: 459

[4] المرجع السابق، ص: 522

[5] المرجع السابق، ص: 46

[6] المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

[7] شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، تح: أحمد أمين وعبد السَّلام هارون، دار الجيل، بيروت – لبنان، ط1، 1991م، مج: 2، القسم الثالث، ص: 1218

وبيت البحتري:[1][من الطويل]

وإنِّــي وإنْ بَــلّــغْــتَــنِــي شَـــــرَفَ الــغِــنَــى وَأعْــتَــقْــتَ مِــنْ رِقِّ الــمَــطَــامِــعِ أخْــدَعِــي

وأعقب على حُســـنِ ورود هذه اللَّفظة في البيتين الســـابقين قائلًا: " فإنَّ لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحُسن "[2]، ثمَّ عقد مقارنة بين هذين البيتين وبيتٍ لأبي تمَّام وردت فيه لفظة (الأخدع) قلقة نابية مستكرهة، فقال: " ثمَّ إنَّك تتأمَّلها في بيت أبي تمَّام:[3][من المنسرح]

يــا دَهْــرُ قَــوِّم مِــنْ أخْــدَعَــيْــكَ، فَــقَــدْ أضْـــــجَــجْــتَ هَــذَا الأنَــامَ مِــنْ خُــرُقِــكْ

فتجد لها من الثِّقل على النفس، ومن التنغيصِ والتكدير، أضــعافَ ما وجدت هناك من الرَّوْح والخِفَّة، ومن الإيناس والبهجة."[4]

فالجرجاني أدرك أثر السِّياق وعلاقات المجاورة بين معاني الألفاظ في إضفاء صفة الحُسن والرونق على اللَّفظ في موضــعٍ، والاســتكراه والتنغيص في اللَّفظ ذاته في موضــعٍ آخر، " فلو كانت الكلمةُ إذا حَسُــنَت حَسُــنَت من حيث هي لفظٌ، وإذا اســتحقَّت المزيَّةَ والشــرف اســتحقَّت ذلك في ذاتها وعلى

[1] ورد هذا البيت بهذه الرواية عند عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز)، ص: 47، وللبيت رواية أخرى وردت في ديوان البحتري هي: " وإنِّي وإنْ بَلَّغْتَنِي شَـــرَفَ العُلَا وأَعْتَقْتَ مِنْ ذُلِّ المَطَامِعِ أَخْدَعِي ": ديوان البحتري، تح: حسن كامل الصَّيرفي، دار المعارف، القاهرة – مصر، ط3، د.ت، مج: 2، ص: 1241

[2] دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص: 47

[3] ورد هذا البيت بهذه الرواية عند عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز)، ص: 47، وللبيت رواية أخرى في ديوان أبي تمَّام هي: " يَا دَهْرُ قَوِّمْ أُخْدَعَيْكَ فَقَدْ أَضجَجْتَ هذا الأَنامَ مِنْ خُرُقِكْ ": ديوان أبي تمَّام بشرح الخطيب التبريزي، تح: محمَّد عبدُه عزَّام، دار المعارف، القاهرة – مصر، ط4، د.ت، مج: 2، ص: 405

[4] دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص: 47

انفرادها، دون أنْ يكون السـببَ في ذلك حالٌ لها مع أَخَواتها المجاورة لها في النَّظم، لَمَا اختلف بها الحالُ، ولكانت إمَّا أنْ تَحْسُنَ أبدًا، أو لا تَحْسُنَ أبدًا."[1]

ومن الأبيات الشعريَّة التي حَسُنَ فيها اختيار اللَّفظ في شعر أبي فراس الحمداني قوله:[2][من الطويل]

يَـقُـولُـونَ لَا تَـخْـرُقْ بِـحِـلْـمِـكَ هَـيْـبَـةً وَأَحْسَـنُ شَـيْءٍ زَيَّـنَ الْـهَـيْـبَـةَ الْـحِـلْـمُ

جاءت لفظة (شَـيْء) حَسَـنَةً رائقةً، متناسـبةً مع معاني الألفاظ المُجاورة لها في سِياق النَّظم، ذلك أنَّ الشَّـاعرَ أحسـنَ في اختيار اللَّفظة، فحملت العديد من المعاني الهامشـيَّة من خلال ورودها في سـياق النَّظمِ، فهي اسمٌ يدلُّ على أيِّ شـيءٍ " موجودٍ ثابتٍ متحقِّق يصـحُّ أنْ يُتصـوَّر ويُخبر عنه سـواء أكان حسِّـيًّا أم معنويًّا "[3]، ومن ثَمَّ نجد لفظةَ (شَـيْء) تدلُّ على معنى العُمُوم والكَثرة، فهناك أشـياء كثيرة تُزَيِّن الهَيبة، ومِنْ بين تلك الأشـياء (الحِلْم)، فاسـتخدام الشَّـاعر لفظة (شَـيْء) أغنى عن تَعْداد تلك الأشياء التي تُزَيِّن الهَيْبَة، واختار من تلك الكَثرة (الحِلْم) وفضَّـلها على باقي الأشياء التي تُزيِّن الهيبة بلفظة (أَحْسَـن)، فهو اختار الخُلُق الذي كان الحُسْـنُ فيه أتمَّ من غيره إنْ اجتمع مع الهيبة، لذلك نجد الميزة في هذا البيت من خلال استخدام لفظة (شيء) الدالَّة على العموم والكثرة، ولفظة (أَحْسَن) التي تحمل العديد من المعاني، لكنَّها دلَّت في سـياق النَّظم على الحُسـن المعنوي لوجود قرينة لفظيَّة هي كلمة (الهيبة).

ومن ذلك أيضًا قوله:[4][من مخلَّع البسيط]

يُـغَـيِّـرُ الْـدَّهْـرُ كُـلَّ شَـيْءٍ، وَهْـوَ صَـحِـيـحٌ لَـهُـمْ، سَـلِـيـمُ!

[1] المرجع السابق، ص: 48

[2] ديوان أبي فراس الحمداني، ج2، القسم الثالث، ص: 364

[3] معجم اللغة العربية المعاصـرة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة – مصـر، ط1، 2008م، مج: 2، مادة (ش ي أ)، ص: 1252

[4] ديوان أبي فراس الحمداني، ج2، القسم الثالث، ص: 345

جاءت لفظة (شـــيء) حســـنةً رائقةً، وذلك لأنَّ معناها تناســـب مع المعنى المراد، وهو الدلالة على العموم لمجاورتها للفظة (كل)، فالشـــاعر لا يريد أنْ يعدِّد الأشـــياء التي يغيِّرها الدهر (ســـواء أكانت حسـيَّة أم معنويَّة) فاسـتخدم لفظة (شـيء)، وهذه اللَّفظة بدلالتيها الحسـيَّة والمعنويَّة تناسـبت مع لفظة (الدهر)، إلى جانب التناسـب بين لفظة (الدهر) مع إسـناد فعل التغيير إليه، فالدهر هو " زمن الحياة الدُّنيا كلّها، مُدَّة بقاء الدُّنيا إلى انقضـائها "[1]، وهو أمرٌ معنويٌّ يمكن له أنْ يُغيِّرَ كُلَّ شـيءٍ، حسِّـيٍّ كان كملامح الإنسان أم معنويٍّ كطبائع الناس وأخلاقهم، لذلك نجد لفظة (شيء) جاءت في مكانها المناسب ضمن السِّياق.

ومن مجيء لفظة (شَـــيْء) قلقةً نابيةً بســـبب عدم ائتلافها معنويًّا مع معاني الألفاظ المُجاورة لها في سِيَاق النَّظْمِ قول المتنبِّي:[2][من الطويل]

لَـوِ الـفَـلَـكُ الـدَّوَّارُ أبْـغَضْـــتَ سَـــعْيَـهُ لَـــعَـــوَّقَـــهُ شَـــــيءٌ عـــن الـــدَوَرَانِ

جاءت لفظة (شَيْء) قلقةً نابيةً مقارنةً مع مجيء لفظة (شَيْء) في بَيْتَي أبي فِراس الحمْداني السابِقَيْن.[3]

وهكذا نســـتطيع القول: إنَّ الكلمة تكتســـب المزيَّة والقبول حين يتلاءم معناها مع معاني الكلمات المجاورة لها والمعنى الكلِّي للسـياق في سـياق نظمٍ معيَّنٍ " فلو كانت الكلمةُ إذا حَسُـنَت حَسُـنَت من حيث هي لفظٌ، وإذا اسـتحقَّت المزيَّةَ والشـرف اسـتحقَّت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أنْ يكون

[1] معجم اللغة العربيَّة المعاصرة، أحمد مختار عمر، مج: 1، مادة (د هـ ر)، ص: 776

[2] شرح الواحدي لديوان المتنبِّي، تح: ياسين الأيُّوبي وقصي الحسين، دار الرائد العربي، بيروت – لبنان، ط1، 1999م، مج: 4، ص: 1810

[3] عدَّ عبد القاهر الجرجاني اسـتخدام المتنبِّي للفظة (شـيء) في هذا البيت قليلة ضـئيلة، إلَّا أنَّ محقِّق كتاب دلائل الإعجاز (محمود محمد شـاكر) عدَّها كبيرةً موحيةً بما في نفس الشـاعر، وعلَّل السـبب في ذلك من خلال مناسـبة القصـيدة التي ورد فيها البيت، فهو من القصـيدة التي قالها سـنة 348 هـــ، والتي قال فيها أيضًـا قصـيدته الميميَّة حين ركبته الحمَّى، والتي عرَّض فيها بالرحيل عن كافور، وهي قصـــيدة مدح، لكنَّ محقِّق كتاب دلائل الإعجاز رأى أنَّ الشـــاعر ينفِّث في بعضـها عمَّا في صدره من الغيظ على كافور واسـتهانته به، ولذلك فقد عدَّ لفظ (شيء) في هذا البيت ممَّا يكشف عن هذه الاسـتهانة بكافور، ورأى أنَّ الجرجاني لو لحظَ هذا الملحظ لما عدَّها قليلة ضـئيلة، بل كبيرة موحية بما في نفسه: ينظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص: 48

السـببَ في ذلك حالٌ لها مع أَخَواتها المجاورة لها في النظم، لَمَا اختلف بها الحالُ، ولكانت إمَّا أنْ تَحْسُن أبدًا، أو لا تَحْسُن أبدًا."[1]

فالجرجاني ينفي أنْ تكون الفصـاحة مرتبطة باللَّفظة المفردة في ذاتها من حيث هي لفظٌ ونطقُ لسـانٍ وإنْ أعطى بعض الفضل لأنْ تكون مذاقة الحروف وسلامتها ممَّا يثقل على اللِّسان داخلًا فيما يوجب الفضيلة، إلَّا أنَّه أنكر أنْ يجعل ذلك وحده الأصل والعمدة في الفصاحة وما يؤكِّد أمر الإعجاز،[2]ولعلَّه لأجل ذلك فرَّق بين الحروف المنظومة والكلم المنظوم " وذلك أنَّ ((نظم الحروف)) هو تواليها في النطق، وليس نظمُها بمقتَضَـى عن معنى، ولا الناظمُ لها بمُقْتَفٍ في ذلك رسْـمًا من العقل اقتضـى أنْ يتحرَّى في نظمه لها ما تحرَّاهُ. فلو أَنَّ واضعَ اللُّغة كان قد قال ((رَبضَ)) مكانَ ((ضربَ))، لما كان في ذلك ما يؤدِّي إلى فسـاد. وأمَّا ((نَظْمُ الكَلِم)) فليس الأمر فيه كذلك، لأنَّك تقتفي في نَظْمها آثارَ المعاني، وتُرَتِّبُها على حسب ترَتُّبِ المعاني في النفس."[3]

ومن الأمور الجديرة بالذِّكْرِ حين نتحدَّث عن فصـاحة الألفاظ ألَّا نُغْفِلَ شـرطًا مهمًّا من شـروط الفصـاحة، وهو التناسـب العُرفي للألفاظ مع البيئة الاجتماعيَّة، وهذا ما أشـار إليه علماء البلاغةِ القدامى ومنهم عبد القاهر الجرجاني في قوله: " وأمَّا رجوع الاستحسان إلى اللَّفظ من غير شِرْكٍ من المعنى فيه، وكونِه من أسبابه ودواعيه، فلا يكاد يَعْدُو نمطًا واحدًا، وهو أنْ تكون اللَّفظة ممَّا يتعارفه الناس في استعمالهم، ويتداولُونه في زمانهم، ولا يكون وَحْشيًّا غريبًا، أو عامّيًّا سخيفًا، سُخْفُهُ بإزالته عن موضـوع اللُّغة، وإخراجِه عمَّا فرضـتْه من الحكم والصـفة، كقول العامَّة ((أَشْـغَلتَ)) و ((انفسد))."[4] وضربَ مثالًا على السُّخف في معنى اللَّفظ الذي يُخرجه عن الاستحسان " كما يُحكى من قول عبيد الله بن زياد لمَّا دُهِشَ: ((افتحوا لي سـيفي))[5]، وذلك أنَّ ((الفتح)) خلاف ((الإغلاق))،

---

[1] المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

[2] ينظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص: 522

[3] المرجع السابق، ص: 49

[4] أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص: 6

[5] يُنظر: البديع، ابن المعتز، تح: عرفان مطرجي، مؤسَّسـة الكتب الثقافيَّة، بيروت – لبنان، ط1، 2012م، ص: 34، والبيان والتبيين، الجاحظ، تح: عبد السـلام محمَّد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، القاهرة – مصـر، ط7، 1998م، ج2، ص: 210

فحقُّه أنْ يتناول شيئًا هو في حكم المُغلَق والمسدود، وليس السَّيف بمسدود، وأقصى أحوالِه أنْ يكون كونُه في الغِمْد بمنزلة كَوْنِ الثوب في العِكْمِ، والدرهمِ في الكيس، والمتاعِ في الصـــندوق. و((الفتحُ)) في هذا الجنس يتعدَّى أبدًا إلى الوِعاء المسدود على الشـيء الحاوي له لا إلى ما فيه، فلا يُقال ((افتحِ الثوبَ))، وإنَّما يُقال: ((افتحِ العِكْمَ))[1]و ((أخرجِ الثوب)) و ((افتحِ الكيس))."[2]

ومن الأبيات الشعريَّة التي جاءت فيها الألفاظ متناسبة عرفًا مع المعنى في شعر أبي فراس الحمْداني قوله:[3][من الكامل]

فَـحُـمَ الْـغَـبِـيُّ وَقُـلْـتُ غَـيْـرَ مُـلَـجْـلَـجٍ: إِنِّـــي لَـمُشْـــتَـــاقٌ إِلَـــى الـــعَـــلْـــيَـــاء

وَصِـــنَـــاعَتِي ضَـــرْبُ السُّـــيُوفِ وَإِنَّنِي مُـتَـعَـرِّضٌ فِـي الشِّـــعْـرِ بـــالشَّـــعَـرَاء

واللهُ يَـــجْـــمَـــعُـــنَـــا بِـــعِـــزٍّ دَائِـــمٍ وَسَـــــلَامَـــةٍ مَـــوْصُـــولَـــةٍ بِـــبَـــقَـــاء

الشـاعر في هذه الأبيات يفخرُ بنفسـه وذودِه عن قبيلته بسـيفِهِ وشـعره، فهو فارسٌ شـاعرٌ، لذلك نجدُه يتغنَّى بشـجاعته وشـعريَّته من خلال اسـتخدام الألفاظ (فَحُمَ – الغبيُّ – غير مُلْجلج – العَلْيَاء)، وهي ألفاظٌ مُتناسبةٌ عُرْفًا مع المعنى الذي أراده، فهو يريدُ أنْ يَهْجُو خُصومه فاستخدم لفظة (فَحُمَ) في سياق الذمِّ، وهي لفظةٌ تحملُ العديدَ من المعاني، منها: " فحُمَ الشَّيءُ: اسودَّ، اشتدَّ سواده (...) أفحم خَصْمَه: أسكته بالحُجَّة القاطعة؛ أعجزه عن الجواب (...) أفحمه البكاءُ: قطع نَفَسه وصوْتَه."[4]

وقد أحسن الشـاعر في اختيار هذه اللَّفظة وأعطاها بُعدًا دلاليًّا مركزيًّا،[5]وذلك حين وضَـعَها في سياقِ نظْمٍ مُعيَّنٍ، فرَبَطَ بين لفظةِ (فَحُمَ) و(الغَبِيُّ) فالخصْمُ سَكَتَ لِعَدَمِ قُدْرَتِه على هِجَاء الشَّاعر لأنَّه غبيٌّ،

[1] " ((العِكْمُ)): ثَوْبٌ يُبْسَطُ ويُجعلُ فيه المتاع ثمَّ يُطوَى ويُشَدُّ بحبل ": أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص: 6

[2] أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص: 6

[3] ديوان أبي فراس الحمْداني، ج2، ص: 9

[4] معجم اللغة العربيَّة المعاصرة، أحمد مختار عمر، مج: 3، مادة (ف ح م)، ص: 1677

[5] للتوسُّع ينظر: المعنى وظلال المعنى، محمد محمد يونس علي، ص: 177 وما بعدها.

وقد تناســـبت هذه الألفاظُ عُرْفًا مع المعنى الذي أراده الشَّـــاعر، فهو يريدُ أنْ يُعبِّرَ عن تغلُّبه على خُصُـومه من المُحاربين والشُّـعراء الَّذين يمدحون في شِـعرهم للتكسُّـب، في حين يَنْأى أبو فراس عن ذلك لأنَّه مَشْغولٌ بصناعة المَجْدِ من خلال فروسيَّته وشِعْرِهِ.

وجاءت لفظة (فَحُمَ) مُعبِّرةً عن المعنى الذي أراده الشَّـــاعر، فلو أنَّه اســـتخدمَ لفظةً غيرها لما أدَّت المعنى الذي قصده، فقد جاءت مُتناسِبَةً مع العُرف الاجتماعي والبيئة العربيَّة التي نشأ فيها أبو فراس الحمْداني، فمن عادة العرب أنْ تقولَ حين انتصـــار الخصـــم على خصـــمه في هِجَاءٍ أو غيره: " فحَّم وجهه تفحيمًا: ســـوَّده. والمُفْحَم: العَيِيُّ. (...) وهاجاه فأَفْحَمه: صـــادفه مُفْحَماً. وكلَّمه فَفَحَم: لم يُطِق جواباً. وكلَّمته حتَّى أَفْحَمْته إذا أَســـكتَّه في خصـــومةٍ أَو غيرها. وأَفْحَمْته أي وجدته مُفْحَماً لا يقول الشِّعر."[1]

وإلى جانب ذلك نجد الإحسان في اختيار الشاعر للفظة (فَحُمَ) في أنَّ دلالاتها الهامشيَّة ترتبط بدلالتها المركزيَّة بوجهٍ أو بآخر، فهي تحملُ معنى السَّـواد، فالفاحم " من كلِّ شـــيء: الأَســـود بَيِّن الفُحومة، ويُبالَغ فيه فيقال: أَسود فاحم. وشَعرٌ فَحِيم: أَسود، وقد فَحُم فحُوماً. وشعرٌ فاحِمٌ وقد فَحُم فُحُومة: وهو الأَسود الحسن "[2].

وموطن الاشـــتراك بين الدلالة المركزيَّة للفظة (فَحُمَ) التي بمعنى سَـــكَتَ في خصـــومةٍ أو غيرها ودلالاتها الهامشـيَّة هي المُبالغةُ في ذمِّ الخَصْـمِ وإظهارُ الحالةِ النفسـيَّةِ المتردِّيةِ التي آل إليها، حتَّى ظَهَرَ ذلك على ملامِحِ وَجْهِهِ من أَثَرِ تلك الخُصُوْمةِ التي أورثتْهُ الخِزْيَ، وهو ما يُعْرَف عند البلاغيِّين بـ (الكناية).

ونجد ذلك في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْـوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْـوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ) [سورة آل عمران: 106]

[1] لسان العرب، ابن منظور، ج10، مادة (فحم)، ص: 196

[2] المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

وإذا نظرنا إلى الصِّـيغةِ الصَّـرفيَّةِ للفظةِ (فَحُمَ) نجدُها على وزنِ (فَعُلَ)، وهي لفظةٌ لم تأتِ على هذه الصـيغة الصـرفيَّة اعتباطًا، بل قصـدَ الشَّـاعرُ إليها قَصْـدًا للمُبالغةِ في هِجَاءِ خَصْـمِهِ والتَّهكُّمِ به، وأنَّ هذه الصفةَ ملازمةٌ له، قال السّيوطي: " (والمضموم للغرائز غالباً) كَكرُم، ولَؤُم، وشَعُر، وفَقُه."[1]

وفي البيت الثاني نجدُ الشَّـــاعرَ يشـــرحُ لنا كيفيَّة صِـــنَاعة المَجْد، وذلك من خلال إبراز مَهَارته في مُحَاربةِ الأعداء بسيفِهِ، ومُعَارضةِ الشُّعراءِ الخُصومِ بِشِعْرِهِ، ولذلك نجدُه أحْسَنَ في استخدامِ لفظتي (صِـنَاعَتِي – مُتَعرِّض) لتتناسـب مع معاني الألفاظ المُجاورة لها في سـياقِ النَّظم، فأثبت مهارتَه في الحرْبِ من خِلال ضَرْبِ الأعداءِ بالسُّيوف، ومُعارَضَةِ الشُّعراءِ الخُصُوْمِ بالشِّعرِ، وبذلك تكون لفظةُ (صِـنَاعة) وفقًا لدلالتها المركزيَّة بمعنى المهارة، قيل: " كلُّ عملٍ لا يسـمَّى صـناعة حتَّى يتمكَّن فيه ويتدرب وينسب إليه (...) والصـناعة قد تطلق على مَلَكَةٍ يقتدر بها على استعمال المصـنوعات على وجه البصـيرة لتحصـيل غرض من الأغراض بحسـب الإمكان "[2]، وفي إضـافة ياء المتكلِّم إلى لفظة (صِنَاعة) دلَّت على التخصيص، وحين جاءت في سياق النَّظْم دلَّت على العديد من المعاني الهامشيَّة، ورد في الكليَّات للكفوي (- 1094هـــ): " والصَّـناعة (بالفتح): تُسـتعمل في المحسـوسـات، وبالكسـر في المعاني، وقيل: بالكسـر حِرفة الصَّـانع. وقيل: هي أخصُّ من الحرفة، لأنَّها تحتاج في حصولها إلى المزاولة، والصنع أخصُّ من الفعل كذا العمل أخصُّ من الفعل فإنَّه فعلٌ قصديٌّ لم يُنسب إلى الحيوان والجماد "[3]، فجمعَ الشَّـــاعر بين المحســـوسِ والمعنويِّ، فهو يملكُ مهاراتٍ كثيرة في الحربِ والشِّعرِ، لا يملكُها غيره من الفُرسان والشُّعراء، وكلُّ ذلك لخَّصَهُ في لَفْظَةِ (صِنَاعَتِي) عندما خَصَّصَهَا بِنَفْسِهِ.

وإلى جانب ذلك نجد أبا فراس يثبت شـجاعته، فضـربُ الأعداءِ بالسُّـيوف يكون من مسـافةٍ قريبةٍ، فاســتخدم ألفاظًا مُتناســبةً مع معنى الألفاظِ المُجاورةِ لها من جهةٍ ومع العُرف الاجتماعي من جهةٍ

[1] همع الهوامع في شـــرح جمع الجوامع، السّـــيوطي، تح: عبد العال ســـالم مكرم، دار البحوث العلميَّة، الكويت، د.ط، 1980م، ج6، ص: 22

[2] الكليَّات (معجم في المصـطلحات والفروق اللغويَّة)، أبو البقاء الكفوي، تح: عدنان درويش ومحمَّد المصـري، مؤسَّسـة الرسالة، بيروت – لبنان، ط2، 1998م، ص: 544

[3] المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

أُخرى، فلفظة (ضَـرَبَ) تحملُ العديد من المعاني منها: الحركةُ والإصـابةُ والصَّـدمُ والدقُّ والإلقاءُ،[1] وهي متناسبة - بما تحمله من معانٍ - مع لفظة (السُّيوف)، فالعربُ تقولُ: ضَرَبَهُ بالسَّيْفِ: أي أَصَابَهُ به وأوقَعَهُ عَليهِ.[2] ولفظة (السُّـيوف) جاءت مُتَناسـبة مع العُرف الاجتماعي لأنَّها من أدوات الحرب، وتَظْهَر مقدرة الشَّاعر اللُّغويَّة في استخدام المصدر (ضَـرْب) الدال على ثبات الحدث مع (السُّيوف) للدلالة على ثباته في سـاحات القتال وكثرة معاركه وتصـدِّيه للأعداء، وذلك يتناسـب مع المعنى الذي دلَّت عليه لفظة (صِنَاعَتِي) المجاورة للفظة (ضَرْب) في سياق النَّظْمِ ذاتِهِ.

وفي الشطر الثاني نجد الشاعر يثبت شاعريَّته من خلال معارضة الشعراء الخصوم بشعره، فاستخدم اسم الفاعل (متعرِّض)، وهي لفظة متناسبة عرفًا مع معاني الألفاظ المجاورة لها، فشعره فيه تلميحات يفهمها الذكيُّ ولا يفهمها الغبي، وهي لفظةٌ متناســبة مع الألفاظ (فَحُمَ – الغبي)، فالعرب تقول: " عرَّض به / عرَّض له: قال قولاً اقتصر فيه على التَّلميح من غير إفصاح "[3].
ويُقال: " عارضَ شاعرًا: باراه، جاراه في شِعره وأتى بمثله أو أحسَن منه " معارضة الشُّعراء ممتعة – عارَض جريرٌ الفرزدقَ – عارَض بمثل صنيعه: فعل مثلَ فعله، أتى إليه بمثل ما أتى"."[4]

وإلى جانب ذلك نجدُ التقابلَ الدلالي بين شطري البيت الشعري، فالشجاعةُ والفروسيَّةُ التي تجلَّت في ضَرْبِ الأعداءِ بالسُّيوفِ تُقابلُها الشَّاعريَّةُ التي تجلَّت في مُعارضة الخُصوم من الشعراء، وبذلك أثبتَ فخرَه بنفسه وتعريضَه بالخصوم بالفعل (ضَرْبِ السُّيُوْف) والقول (مُعارضة الشُّعراء بِشِعْره).

وإلى جانب ذلك نجدُ بعض الدَّارســين العرب القُدامى جَعلوا تناسُــبَ الألفاظ وائتلافها مع العُرف الاجتماعي أساسًا في صِناعةِ البلاغةِ، ومنهم حازم القرطاجنِّي (- 684هــ)، وقد تجلَّى ذلك في قوله: " يكون النظر في صـناعة البلاغة من جهة ما يكون عليه اللَّفظ الدَّال على الصـور الذهنيَّة في نفسـه ومن جهة ما يكون عليه بالنســبة إلى موقعه من النفوس من جهة هيئته ودلالته، ومن جهة ما تكون عليه تلك الصـور الذِّهنيَّة في أنفسـها، ومن جهة مواقعها من النفوس من جهة هيآتها ودلالاتها على ما

[1] ينظر: معجم اللغة العربيَّة المعاصرة، أحمد مختار عمر، مج: 2، مادة (ض ر ب)، ص: 1352
[2] ينظر: المرجع السابق، مج: 2، مادة (ض ر ب)، ص: 1353
[3] المرجع السابق، مج: 2، مادة (ع ر ض)، ص: 1481
[4] المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

خارج الذهن، ومن جهة ما تكون عليه في أنفسها الأشياء التي تلك المعاني الذهنيَّة صور لها وأمثلة دالَّة عليها، ومن جهة مواقع تلك الأشياء من النفوس."[1]

ومع ذلك قدَّم عذرًا للشَّاعر الذي يأتي بألفاظٍ غير مألوفةٍ في شعره، وعدَّ ذلك مُسْتحسنًا في الشِّعر، وفي ذلك يقول: " كما أنَّ اللَّفظ المُستعذب وإنْ كان لا يعرفه جميع الجمهور مُسْتحسنٌ إيراده في الشعر لأنَّه مع استعذابه قد يفسَّر معناه، لمن لا يفهمه، ما يتَّصلُ به من سائر العبارة. وإنْ لم يكن في الكلام ما يفسِّره لم يعوز أيضًا وجدان مفسِّره لكونه ممَّا يعرفه خاصَّة الجمهور أو كثير منهم. والإتيان بما يُعرف أحسن."[2]

كما في قول أبي فراس الحمْداني:[3][من الطويل]

وَلَا تَصِفَنَّ الْحَرْبَ عِنْدِي فَإِنَّهَا طَعَامِيَ مُذْ بِعْتُ الصِّبَا وَشَرَابِي

وَقَدْ عَرَفَتْ وَقْعَ الْمَسَامِيرِ مُهْجَتِي وَشُقَّقَ عَنْ زُرْقِ النُّصُولِ إِهَابِي

وَلَجَّجْتُ فِي حُلْوِ الزَّمَانِ وَمُرِّهِ وَأَنْفَقْتُ مِنْ عُمْرِي بِغَيْرِ حِسَابِ

الشَّاعرُ في هذه الأبيات يفخرُ بنفسه ويصِفُ تجلُّده وصبره على مصائبِ الدَّهرِ، فالأبياتُ قالها وهو في الأسرِ بعد أنْ عُوفيَ من علَّةٍ أصابته، وهي استقرار عددٍ من نُصُولِ السِّهام في بدنه مدَّة سنتين ونصفٍ، وشُقِّقَ عنها ست مرَّات حتَّى خرجت من بدنه.[4]

وقد أحسنَ الشَّاعِرُ اختيار الألفاظ التي جاءت مُتناسبة عُرفًا مع المعنى العام للقصيدة، والبيئة الاجتماعيَّة التي نشأ فيها أبو فراس، فألفاظُها معروفةٌ في لُغةِ العرب التي كان يفهمُها المُحارب كما

[1] منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجنِّي، تح: محمَّد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، د.ط، 1986م، ص: 17

[2] المرجع السابق، ص: 29

[3] ديوان أبي فراس الحمْداني، ج2، ص: 29

[4] ينظر: المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

كان يفهمها البدوي البسيط، فاستخدم لفظة (زُرْقِ النُّصُوْلِ) في البيت الثَّاني، وهي تعبيرٌ مجازيٌّ معروفٌ في الشِّعر العربي القديم، يحملُ دلالةً مركزيَّةً، إذ يُقال " للأسنَّةِ زرْق لبصيصِ لونِهَا "[1]، ويُقال: " نَصْلٌ (أزْرَقُ) بَيِّنُ (الزَّرَقِ) أي شديدُ الصَّفَاءِ. ويُقالُ للماءِ الصَّافِي: (أزْرَقُ)."[2]

وإلى جانب هذه الدلالة نجدُ الشَّاعر يُحمِّلها العديد من الدلالات الهامشيَّة، وذلك عندما استعملها في سياق النَّظم، فمن خلال مُجاورتها لباقي الكلمات دلَّت على شدَّة الألم والمُعاناة التي كابدها الشَّاعر وهو مُصابٌ في أسرهِ، لا سيَّما أنَّ النُّصول ليست عاديَّة، بل قاطعة وحادَّة، فهي لشدَّة صقْلِها وحدَّتها أشبهت صفاء الماء، وهي لا تزال عالقة في جسده، وقد أُضْمِرَت تحت لحمه مدَّةً طويلةً، لذلك احتيج إلى شقٍّ لحمه مرَّات عدَّة لاستخراجها، فعبَّر عن ذلك بالفعل الماضي المبني للمجهول (شُقِّق) فحُذِفَ الفاعل وناب عنه المفعول به (إهَابِي) تحقيرًا للأعداء وصونًا للسانه عن ذِكْرِهم، وجاء الفعل بالزمن الماضي لأنَّ الشَّاعر يروي لنا أحداثًا وقعتْ وانتهتْ في الزَّمن الماضي، وجاء على وزن (فُعِّلَ) للدلالة على المُبالغة والتَّكثير، فعبَّر بهذه الصِّيغة عن شدَّة الألم الذي تعرَّض له حين استخراج تلك النُّصول من جَسَدِه، وقد حملت صيغةُ الجَّمعِ (زُرْق النُّصول) دلالةً على إظهار شَجَاعةِ الشَّاعر وصموده أمام الأعداء، فكَثْرَة النُّصول التي استقرَّت في جسده لم تُثبِطْ عزيمتَه في مواجهتهم والتَّصدِّي لهم.

وإلى جانب ذلك نجدُ الشَّاعر قد أحسنَ اختيار لفظة (إهَابِي) فتناسبت مع معنى الشَّجاعة والصُّمود، إذ تحملُ دلالتُها المركزيَّةُ معنى الجلدِ المُغلِّفِ لِجسمِ الحيوان قبلَ دَبْغِهِ،[3] لكنَّها اكتسبت العديدَ من الدلالات الهامشيَّة حين ورودها في سياق النَّظْم، فدلَّت على صَلابةِ الشَّاعرِ وتجلُّدِهِ وقوَّةِ جسدِهِ وإقدامِهِ على مواجهةِ الأعداءِ، فهو لمْ يَقُلْ (جِلْدِي)، لأنَّ الجِلْدَ يكونُ رقيقًا، في حين استخدمَ لفظةَ (إهَاب) وخَصَّصها بنفسِهِ حين أضافَ إليها ياء المُتكلِّم للدلالةِ على شِدَّةِ صَلَابتهِ وقوَّتِهِ، وكثرةِ حروبِهِ والطعناتِ التي تعرَّضَ لها حتَّى أشبهَ لحمُهُ إهابَ الحيوانات.

[1] تهذيب اللغة، الأزهري، تح: عبد العظيم محمود ومحمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة – مصر، د. ط، د. ت، ج8، مادة (زرق)، ص: 428

[2] مختار الصحاح، أبو بكر الرازي، مكتبة لبنان، بيروت – لبنان، د.ط، 1989م، مادة (زرق)، ص: 238

[3] ينظر: معجم اللغة العربيَّة المعاصرة، أحمد مختار عمر، مج: 1، مادة (أ هـ ب)، ص: 135

وفي البيت الثالث نجدُ الشَّـاعِرَ يصـفُ كثرةَ تَجارِبِهِ وخبرتِهِ في الحياةِ بِحُلْوِها ومُرِّها، فعبَّر عن ذلك بلفظة (لَجَّجْتُ) وقد أحْسَن اختيار هذه اللَّفظة لتناسُبِ معناها مع المعنى العام الذي أراده، وهو إظهارُ صـــلابتِهِ وإقدامِهِ على ملذَّاتِ الحياةِ ومصـــائِبِهَا، وجاءت على وزن (فَعَّلْتُ) فحملت هذه الصِّـــيغة الصَّـــرفيَّة دلالةً على المُبالغةِ والتَّكثيرِ، إذ يُقال: " لجَّ في الأمر: تمادى فيه معاندًا، لازمه وأبى أنْ ينصـرف عنه "[1]، وهي لفظةٌ معروفةٌ في الشِّـعر العربيِّ القديم والقُرآن الكريم، من ذلك قولُه تعالى: (أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ) [سورة الملك: 21]

وإلى جانب ذلك نَجِدُ الشَّـاعرَ أحسنَ اختيار لفظة (أَنْفَقْتُ) فجاءت مُتناسِبَةً مع سِيَاق الفخرِ، إذ جَعَلَ الإنفاقَ من عُمره، وهو أغلى ما يملِكُه الإنســانُ، وتناســبتْ مع معنى لفظةِ (لجَّجْتُ)، فطولُ المُعاندةِ والتمادي في مَلذَّات الحياةِ ومَصــائبها يجعلُ العُمرَ ينقضــي ســريعًا دون أنْ يشــعرَ الإنســانُ بذلك، وهنا لدينا مقابلةٌ دلاليَّةٌ[2]ما بين لفظتي (لَجَّ) و(أَنْفَقَ) فكلتاهما تحمل معنى الكَثْرةِ في الإنفاقِ (كثرةُ التمادي في ملذَّات الحياةِ ومصـــائبها يُقابله كثرةُ الإنفاقِ من عُمرِه)، وهذا تناســبٌ بالتَّكرار المعنويِّ، وهو نوعٌ من المُشاكلةِ[3]، أفاد الرَّبط بين أجزاءِ البيتِ الشِّعريِّ.

نستنتج ممَّا تقدَّم ذِكْرُهُ أنَّ استجادة الألفاظ والحكم عليها بالحُسْن أو الرداءة لا يقتصـر على مُلاءمة معنى اللَّفظ لمعاني الألفاظ المُجاورة له في سياق النَّظم، بل لا بدَّ للألفاظ المُختارة أنْ يَتَناسبَ معناها عُرفًا مع المُجتمع الذي تُسْتَعملُ فيه.

[1] معجم اللغة العربيَّة المعاصرة، أحمد مختار عمر، مج: 3، مادة (ل ج ج)، ص: 1994

[2] عرَّف أبو هلال العسكري المقابلة في (كتاب الصناعتين) بقوله: " والمقابلة: إيرادُ الكلام، ثمَّ مقابلته بمثله في المعنى أو اللَّفظ على جهة الموافقة أو المخالفة ": كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، أبو هلال العسكري، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة – مصر، ط2، د.ت، ص: 346

[3] وردت تعريفات كثيرة للمشـــاكلة عند البلاغيِّين العرب القدامى، وقد عدَّها أبو هلال العســـكري نوعًا من المقابلة في المعنى، حين قال: " فأمَّا ما كان منها في المعنى فهو مقابلةُ الفعل بالفعل ": كتاب الصـــناعتين، أبو هلال العســـكري، ص: 346

وبعبارةٍ أخرى، المشـاكلةُ: " هي أنْ يُذكر الشَّـيءُ بلفظ غيره لوقوعه في صُـحبته ": جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي، تح: يوسف الصميلي، المكتبة العصريَّة، بيروت – لبنان، د.ط، د.ت، ص: 309

ثانيًا: نتائج البحث:

1- يعدُّ السِّياق بأنواعه المختلفة (السِّياق اللُّغوي وغير اللُّغوي) أساسَ المزيَّة والقبول في اللَّفظ، وذلك حين يتلاءم معناه مع معاني الألفاظ المجاورة له والمعنى الكلِّي للسياق في سياق نظمٍ معيَّنٍ.

2- إنَّ استجادة الألفاظ والحكم عليها بالحُسْن أو الرداءة لا يقتصر على مُلاءمة معنى اللَّفظ لمعاني الألفاظ المُجاورة له في سياق النَّظم، بل لا بدَّ للألفاظ المُختارة أنْ يَتَناسبَ معناها عُرفًا مع المُجتمع الذي تُسْتَعملُ فيه.

3- امتاز أسلوب أبي فراس الحمْداني من غيره من الشُّعراء العرب القُدامى، في أنَّه لم يأتِ بألفاظٍ غريبةٍ وحشيَّةٍ في شعرِهِ، بل أتى بألفاظٍ مألوفةٍ ومتناسبةٍ مع العُرْف الاجتماعي، ولكنَّه صاغها بطريقته الخاصَّة، وذلك يُعدُّ رُكناً أساسًا في صِناعةِ البلاغةِ، وهذا ما وجدناه عند بعض الدَّارسين العرب القُدامى كحازم القرطاجنِّي في كتابه (منهاج البلغاء وسراج الأدباء).

ثالثًا: المصادر والمراجع:

- **المصادر:**

- القرآن الكريم.

1- أســـرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تح: محمود محمَّد شـــاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدَّة، د.ط، د.ت.

2- البديع، ابن المعتز، تح: عرفان مطرجي، مؤسَّسة الكتب الثقافيَّة، بيروت – لبنان، ط1، 2012م.

3- البيان والتبيين، الجاحظ، تح: عبد الســـلام محمَّد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، القاهرة – مصر، ط7، 1998م.

4- تهذيب اللغة، الأزهري، تح: عبد العظيم محمود ومحمد علي النجار، الدار المصـــرية للتأليف والترجمة، القاهرة – مصر، د. ط، د. ت.

5- الخصائص، ابن جني، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصريَّة، مصر، ط2، د.ت.

6- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح: محمود محمَّد شـــاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدَّة، ط3، 1992م.

7- ديوان أبي تمَّام بشـرح الخطيب التبريزي، تح: محمَّد عبدُه عزَّام، دار المعارف، القاهرة – مصـر، ط4، د.ت، مج: 2.

8- ديوان أبي فراس الحمداني، تح: سامي الدَّهَّان، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربيَّة، بيروت – لبنان، د.ط، 1944م.

9- ديوان البحتري، تح: حسن كامل الصَّيرفي، دار المعارف، القاهرة – مصر، ط3، د.ت، مج: 2.

10- سرُّ الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ط1، 1982م.

11- شـرح ديوان الحماسـة، المرزوقي، تح: أحمد أمين وعبد السَّـلام هارون، دار الجيل، بيروت – لبنان، ط1، 1991م، مج: 2، القسم الثالث.

12- شرح الرضي على الكافية، تح: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي – ليبيا، ط2، 1996م.

13- شرح الواحدي لديوان المتنبِّي، تح: ياسين الأيُّوبي وقصي الحسين، دار الرائد العربي، بيروت – لبنان، ط1، 1999م.

14- كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، أبو هلال العسكري، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة – مصر، ط2، د.ت.

15- كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ط1، 2003م.

16- لسان العرب، ابن منظور، تح: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث الإسلامي، مؤسَّسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، ط3، 1999م.

17- مختار الصحاح، أبو بكر الرازي، مكتبة لبنان، بيروت – لبنان، د.ط، 1989م.

18- معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة – مصر، ط1، 2008م، مج: 2.

19- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجنِّي، تح: محمَّد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، د.ط، 1986م.

20- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي، تح: علي دحروج وعبد الله الخالدي وجورج زيناتي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت – لبنان، ط1، 1996م.

21- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، السّيوطي، تح: عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلميَّة، الكويت، د.ط، 1980م، ج6.

- **المراجع العربيَّة:**

1- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي، تح: يوسف الصميلي، المكتبة العصريَّة، بيروت – لبنان، د.ط، د.ت.

2- دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصريَّة، مصر، ط3، 1976م.

3- المعنى وظلال المعنى (أنظمة الدلالة في العربية)، محمد محمد يونس علي، دار المدار الإسلامي، ط2، 2007م.

- **المجلَّات:**

1- قضـــيَّة اللَّفظ والمعنى في الميزان الجرجاني، عبُّود خليفة، مجلَّة حوليات كلية الآداب واللغات لجامعة طاهري محمد بشار، الجزائر، العدد: 15.

2- اللفظ والمعنى في ضوء الدلالة، نور الهدى لوشن، مجلَّة التبيين، الجزائر، العدد: 22، 2004م.